







## المقدمة

إننا لا نستطيع أن ندعى بأن الإنسان المتحضر قد استطاع أن يتخلص تماماً مما كان موجوداً لدى الإنسان البدائي ، لعدم اختلاف الإنسان المتحضر عن البدائي إلا بالمجموعة الهائلة من المعلومات والعادات التي حصل عليها من خلال الوسط الاجتماعي الذي يحيا في كنفه ، لأن ما اكتسبه الإنسان على مر العصور لم يمحُ ما كان موجوداً في المجتمعات البدائية وذلك "برغم الاختلاف البين بين مجتمعاتنا المتمدنية ومجتمع الخليفة الأول ، فإن هناك تشابهاً أساسياً بينهما"<sup>(١)</sup>.

وفي الواقع إن مجتمعاتنا المتمدنية هي أيضاً مجتمعات مغلقة. صحيح أنها أكثر اتساعاً من تلك الجماعات التي أوجدتها الغريزة ، ولكنها مع ذلك لا تمت بصلة إلى المجتمعات المفتوحة. هناك مطلب اجتماعي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالواجب الأخلاقي ، يتمثل ذلك المطلب في الحاجة الضرورية إلى المجتمع المفتوح الذي يجسد الإنسانية بكاملها .

ويذهب الناس إلى أن الفضائل المدنية نحصل عليها من الأسرة ، فيترتب على ذلك أننا نحب الوطن ، وإذا حدث هذا ، فإنه يؤدي إلى محبة الإنسانية. وتلك النظرة قاصرة وهي نتيجة للموقف العقلي المحض الذي يقفه الإنسان إزاء نفسه ، فوقع في ظنهم أن العاطفة واحدة ، كل ما هنالك أنها تتسع ، وتظل هكذا حتى تشمل الإنسانية بأكملها. ويترتب على ذلك نظرهم الخاطئة التي تذهب إلى أن الجماعات الثلاث المتمثلة في الأسرة ، والأمة ، والإنسانية ، تتضمن عدداً يزداد من الأفراد ، ويترتب على ذلك وينفس النظرة إلى الحب ، فيتم اتساعه بشكل تدريجي ليشمل الإنسانية.

ومما رسخ هذا الوهم أن الجزء الأول من هذه الحقيقة على اتساق مع الواقع ، ألا وهو أن الفضائل العائلية على ارتباط بالفضائل المدنية ، وذلك نتيجة تداخل الأسرة ، والمجتمع ، وبينهما اتصال وثيق ، تلك النظرة خاطئة لأن "هناك تضاد بين المجتمع الذي لحيا فيه وبين الإنسانية عامة كالتضاد بين المطلق والمفتوح. وبعد الفرق بينهما فرقاً في النوع لا في الدرجة" (٢).

إن تناولنا جزءاً من فلسفة "برجسون" بشكل منفصل يعد تشويهاً لتلك الفلسفة ، على اعتبار أنها "تحاول الكشف - عن طريق الحدس - عن الخاصية الأساسية للوجود ألا وهي الديمومة أو الصيرورة ، ونرى أن هذا الزمان المطلق إلى الديمومة يتمثل في تدفق مستمر لوثة حيوية تنشأ عنها ومن خلال تطور صور الحياة المختلفة . ثم تتخل هذه الوثة في صميم حياتنا الأخلاقية والدينية فتنشأ عنها الأخلاق المفتوحة والأخلاق المغلقة ثم الدين بنوعيه : المتحرك والساكن ، ولكل منهما مجاله الخاص وطبيعته المميزة" (٣).

لذلك تعرضنا بشكل مختصر إلى معنى الديمومة أو الصيرورة والوثبة الحيوية .

وينقسم البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة :-

الفصل الأول - الإلزام والضرورة .

الفصل الثاني - الأخلاق بين الفردية والاجتماعية .

الفصل الثالث - الواجب والعقل .

الفصل الرابع - الأخلاق الكاملة .

أ - الأخلاق الإنسانية .

ب- الأخلاق المغلقة والأخلاق المفتوحة .

ج- التربية الأخلاقية .

## الفصل الأول

### الإلزام والضرورة

إن السلوك الإنساني عامة ليس سلوكا عشوائيا ولا يحدث بشكل عفوى ، لكنه سلوك إرادى منظم . قد ينساق الفرد وراء إحدى نزواته ، ولكنه قبل أن يسلك هذا المسلك اللا أخلاقى ، يتوقف عن ممارسة هذا السلوك ، ويسلك سلوكا أخلاقيا ، ويرى أن هذا السلوك هو الذى يجب عليه اتباعه . إن الذى يجب فى مجال السلوك الأخلاقى ، هو ما نطلق عليه الإلزام . إن الإلزام مرتبط بالطبيعة الإنسانية القادرة على الاختيار ، ويتم ذلك من ذاته وبحرية كاملة . أما الضرورة الطبيعية فهى سارية فى الأشياء ، وهى نظام مرتبط بالحوادث اضطرارا ومتحد مع طبيعتها .

نشاعل منذ الطفولة عن القوة التى تجعل الآباء والمعلمين يقفون حجر عثرة فى سبيل ما نرغب فى تحقيقه ولاسيما الانتقال من لذة إلى أخرى . وفى الوقت ذاته كنا نشعر أن هؤلاء الآباء والمعلمين ليسوا مصدرأ لهذه النواهى ، ولكنهم أصحاب رسالة يحملونها نيابة عن غيرهم وإن كنا عندئذ نجهلها . ومع ذلك كنا ندرك أن هناك عبئا ثقيلا غير محدد الملامح يثمن على صدورنا بواسطتهم . ذلك هو المجتمع الذى يحتوى على مجموعة من العادات القادرة على تثبيت حاجات الجماعة . والطاعة إما أن تكون لإنسان يأمرنا نيابة عن المجتمع ، وإما إنها طاعة غير محددة لصدورها عن الجماعة نفسها ، دون أن يتسنى لنا أن ندركها بشكل واضح محدد . وكل عادة من عادات الطاعة لا تترك لنا فرصة الاختيار ، بل هى



تضغط على إرادتنا . وفي الواقع نجد أن هذه العادات بعضد بعضها بعضا ، وأنها ليست منفصلة بمعنى أن كل عادة ليست متوقعة على ذاتها ، بل إننا نشعر أن هناك اتصالا بين هذه العادات . وكل عادة إنما تؤدي دوراً اجتماعياً ، سواء أكان بشكل مباشر أو غير مباشر ، ولذلك فإن عاداتنا متماسكة ، وبينها ترابط . وحتى إن بدت لنا على أنها منفصلة عن بعضها بعضا ، فإنها في هذه الحالة تمثل إزمات صغيرة ، ولكنها تمثل جزءاً من الإلزام بشكل عام . وهذا الكل الذي يتضمن الأجزاء ، يرجع إليه في الوقت نفسه الفضل للأجزاء ، في أن الكل يتمتع بهذه المكانة . حيث يعود الكل فيهب كل جزء من هذه الأجزاء السلطة التي يتفرد بها . وهكذا نجد أن للكل دور في تقوية الجزئ ، ونجد ذلك عند ترددنا إزاء واجب منفصل بقولنا هذا واجب . وفي الواقع أننا لا نفكر في الإزمات الجزئية ، ثم نقوم بضمها إلى بعضها البعض ، لتكون بعد ذلك إلزاما كلياً<sup>(4)</sup>.

فالمجتمع متغلغل في كل عضو من أعضائه ، وينعكس في سلوك كل فرد من أفرادها ، ولكننا لا بد من التنويه على أن المجتمع البشري يتكون من كائنات حرة ، ولكن مثل هذه الإزمات التي يفرضها المجتمع ، هي التي تمكنه من البقاء وتضمن له الاستمرارية . كل هذا يجعلنا نعتقد بأن هذا النظام على غرار نظام الطبيعة . ونحن هنا لا نتحدث عما يتفق عليه الناس سواء أكان بالموافقة على بعض الأفعال أو رفض بعضها الآخر ، فالإنسان وإن لم يأخذ بالقواعد الأخلاقية ، فإنه على الأقل يكون حريصاً على أن يظهر بمظهر من يلتزم بها ويقوم برعايتها . وكما أننا في الواقع لا نرى أثراً للمرض عند متابعتنا للمارة في الطرقات ، فكذا لا نستطيع أن نشاهد أفعالهم التي تتناقض مع القواعد الأخلاقية وذلك " برغم قسوتنا

فى الحكم على الناس ، ففى أعماقنا ، اعتقاد راسخ ، لئهم خير منا ، ويرتكز جزء كبير من الحياة الاجتماعية على هذا الوهم الموفق \* (٥).

وقد يكون وراء الأمر الاجتماعى أمرا دينيا ، وقد اختلفت وجهات النظر وذلك فيما يتعلق بتحديد دور الدين ، فسواء كان اجتماعيا بالجوهر أو العرض ، فهناك دور لاشك فيه للدين ، ألا وهو — أى الدين — قد كانت له دائما وظيفة اجتماعية ، وبالتالي له دور مؤثر على أفراد المجتمع ولذا نجد أن الدين " يستهدف التأثير فى الإنسان باطنيا وجوهريا وليس غرض الدين أن يبلغ تأثيره الأفعال الظاهرة والعادات والتقاليد فقط ، بل الموجود نفسه ليبلغ أغوار عواطفه ورغباته وإرادته " (٦).

إن العقوبة التى يحددها المجتمع قد تؤدى إلى خلل بمعنى أن تلك العقوبة قد يتحملها برئ ، وقد بفلت منها مجرم ، ونادرا ما تأخذ جزاء ما قدمناه فى المجتمع من عمل خير ، وليس هناك ميزان إنسانى يمتلك المقدرة على أن يزن العقاب والثواب كما ينبغى أن يكون . وفى هذه الحالة نجد الوظيفة الحقيقية للدين ، فكما أن المثل عند " أفلاطون " تعنى الحقيقة الكاملة ، ولا تعترف بالنقص وكل ما هو كائن فى المثل ذو طبيعة كاملة كما لا مطلقا ، وكل ما فى العالم لا يخرج عن كونه محاكيا لعالم المثل ، وبالتالي يعتبر على النقيض مما هو موجود فى المثل ، وذلك فيما يتعلق بالنقص ، وأن هذا العالم ما هو إلا صورة باهته لما هو موجود فى المثل . فكل ذلك الدين يتعامل مع هذا العالم على أنه عالم النقص والظلم والشر ، ولكن ليس هذا نهاية المطاف ، ولكن هناك العالم الأعلى الكامل الذى يمثل الحقيقة المطلقة وليس منفصلا عن هذا العالم ، وكل ما حدث من نقص فى هذا العالم فسيتم فى المثل الأعلى بإعادة الحق إلى كل ذى حق " وهكذا بعد

أن أضعف الرأى العام ما بين الأمر الاجتماعى والقانون الطبيعى من فوارق فإن الدين محا ذلك " (٧).

قد يقع فى ظن الإنسان من الوهلة الأولى انه حر ، وعلى أنه قادر أن يفعل ما يشاء ، وبوسعُه أن يحقق رغباته ، وإن يفعل كل ما تصبو إليه نفسه من نزوات ، ولا يفكر إلا فى ذاته ، ويسقط من حساباته كل ما يوجد حوله من أفراد داخل المجتمع الذى يحيا فى كنفه . وبمجرد أن تهتم إرادته فى تحقيق ما يريد من رغبات ، يجد قوة معاكسة تقف فى وجهه بقوة وحزم ، تلك القوة تتكون من القوى الاجتماعية ، وهى على النقيض تماما من الدوافع الفردية التى توسوس للإنسان أن يفعل ما يريد ، تؤدى بهم إلى نظام قريب الشبه من النظام الذى نجده فى الطبيعة " إذا ملكت الوعى خلية لأى كائن حى للحظة ما ، فإنها ما تكاد تفكر فى التحرر منه ، حتى تقيدها الضرورة مرة أخرى " (٨).

وقد يتمكن الفرد من تحطيم الضرورة التى له دور فى إيجادها ، ولكنه خاضع لها ، لأن الشعور بالضرورة وإن كان مصحوبا بإمكانية الإفلات منها ، هو أيضا ما نسميه الإلزام ، وهكذا نجد أن " العادة من الطبيعة بمثابة الضرورى من الإلزام " (٩).

ولكن كل إنسان منا ينتمى إلى المجتمع ، وفى الوقت ذاته ينتمى إلى نفسه . فإذا تعمق الفرد نفسه ، أدى به ذلك إلى الوقوف على شخصيه أصيلة متفردة ، وكلما تعمق فى ذلك اكتشف أصالة أمتن . وتلك الفردية المتميزة لا يمكن أن تقاس بغيرها ، ونعجز عن التعبير عنها. وإن كنا نتناول الجهد الذى من خلاله يتبنى لنا الوقوف عما يوجد فى أعماق

النفس، فإن هذا الجهد على الرغم من إمكانية تحقيقه ، فإن هذا نادرا ما يحدث . وأما الإنسان يدرك أن الوجود الحقيقي يتمثل في الوجود الخارجى، عند النقطة التى تتواجد فيها الذات مع غيرها من الذوات ، وعندئذ يتجلى تماما البعد الاجتماعى المتأصل فى الكيان الإنسانى "والملاحظ فى العادة أنه لما كان من الضرورى للمجتمع أن يحافظ على بقائه ، وأن يعمل على صيانة وحدته وتحقيق تماسكه ، فإن الفرد لابد أن يجد نفسه بازاء ضغط اجتماعى بمقتضاء تلزمه الجماعة بأن يحترم قواعد خاصة ، مستعينة فى ذلك بمجموعة من الجزاءات المادية والأخلاقية التى تضمن بها تحقيق ذلك " الإلزام " ومعنى هذا أن الأخلاق لابد أن تتحد بادئ ذى بدء صورة " تنظيم " اجتماعى فيه يخضع كل فرد لمقتضيات الحياة الجمعية ، فيألف من ذلك " عقل جمعى " شبيه بما تصوره دور كايم<sup>(١٠)</sup>.

وهنا يطرح السؤال نفسه : هل يسقط برجسون الأخلاق الفردية ، ومن ثم لا يعبر اهتماما إلا بالأخلاق الاجتماعية؟

## الفصل الثاني

### الأخلاق بين الفردية والاجتماعية

لا يوجد انفصال فى الأخلاق بين البعدين الفردى والاجتماعى - كما يذهب برجسون إلى ذلك - ولا صحة لما يتردد من أن الأخلاق الاجتماعية تسقط من حساباتها تماما الواجبات الفردية . إذ إنه فى الواقع ، فى حالة افتراضنا عدم وجود إلزام سوى أمام الآخرين ، لا نستطيع أن نغفل فى الواقع إلزامنا تجاه أنفسنا ، لأن التضامن الاجتماعى لا يستمد قوته إلا بإضافة الأنا الفردية إلى الأنا الاجتماعية فى كل فرد منا . وتمثل الأنا الاجتماعية إلزاما تجاه المجتمع . وإن لم يكن للمجتمع وجود بداخلنا ، لما وجد له سلطان علينا . وكون المجتمع له وجود بداخلنا يجعلنا لسنا فى حاجة إلى التوجه إليه ، ولكن نكتفى فقط بأنفسنا . ووجود المجتمع لا يكون فى كل منا بنسب متساوية ، وثمة تفاوت قائم بين الأفراد ، ولكن بشكل عام لا يوجد من يمتلك مقدرة الانعزال بشكل كامل ، علاوة على عدم وجود فرد لديه الاستعداد فى قبول الانعزال ، لأن الفرد لديه إحساس بأن نسبة كبيرة من قوته إنما يستمدّها من المجتمع . وحتى إذا افترضنا أن الإنسان لديه رغبة فى الانعزال ، فإنه يفشل فى ذلك ، لأن ذاكرته وخياله مرتبطان ارتباطا كاملا بما غرسه المجتمع ، علاوة على أن المجتمع موجود فى اللغة التى يتحدث بها ، فالإنسان فى وحدته ، وفى تفكيره بمفرده ، يتحدث إلى نفسه ويخاطبها . بالإضافة إلى أن الاتصال النفسى يمثل للإنسان قوته ، فسرعان ما يسيطر عليه الإحباط واليأس عندما يدرك أن عليه بقوته الفردية مواجهة التحديات المتجددة . فالإنسان يستمد من المجتمع الذى

يرتبط به وإن كان على مستوى الخيال ، القوة والحيوية والمجتمع متواجد أمامه ، حتى وإن رغب فى إسقاطه من حساباته . فالفرد يحتفظ بالأنما الاجتماعية فى نفسه ، ويتصرف بمفرده كما يستمد المساعدة من المجتمع والذين فرضت عليهم الظروف معايشة الوحدة فترة من الزمن ، ولم يعثروا فى نواتهم على موارد الحياة الداخلية العميقة ، يعلمون أكثر من غيرهم مشقه إطلاق العنان لأنفسهم ، حتى لا يحدث خلل فى علاقة الأنما الفردية بالأنما الاجتماعية ، لذا لديهم دقة فى صيانة الأنما الاجتماعية حتى لا يتراجع شئ من قوتها تجاه الأنما الفردية<sup>(١١)</sup>.

فالقلق الذى يقع إنسان فريسة له ، لا يخرج عن كونه خلل فى علاقة الأنما الاجتماعية بالأنما الفردية . لو أننا قمنا بتحليل دافع عذاب الضمير الذى يتعرض له مجرم متمرس . فى بداية الأمر قد نعتقد أن الخوف من العقاب هو الذى يستحوذ على اهتمام المجرم ، بدليل الحذر الذى يتخذه المجرم محاولاً إخفاء جريمته ، حتى يصعب التعرف عليه ، ومقدار الفزع الذى يصاب به عند معرفة بعض التفاصيل التى سقطت من حساباته ، مما يترتب عليه ، الوصول إلى الدليل الحاسم الذى يؤكد ارتكابه للجريمة . ولكن علينا أن نحاول أن نعيد النظر عن قرب ، سنجد أن محاولة تحاشي العقاب ليست هى شغله الشاغل ، مقارنه بمحاولته طمس الماضى ، وكأن لسان حاله ، يرغب فى جعل الجريمة نسياً منسياً . فالجريمة عندما تكون مجهولة من قبل الناس فلاوجود لها . وبعد أن يحقق المجرم ما يصبو إليه من إخفاء جريمته عن الناس ، لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه ، عندئذ يعرف أنه مازال مجرماً ، وتلك المعرفة تبعده عن المجتمع رويداً رويداً ، بعد أن كان يراوده الأمل أن يبقى فيه بعد طمس

جريمته وإخفائها . بعد ذلك يسيطر عليه شعور عام بأن الاحترام الذى يحظى به من المجتمع الآن ليس له ، وإنما إلى شخصه السابق الذى لم يعد له وجود . ويعلم أن المجتمع لا يتعامل معه ، بل يتعامل مع شخص آخر ، أصبح غير موجود . أنه الإنسان الوحيد الذى يعرف من هو ، فيحيا بين الناس وهو فى عزله عنهم ، خير له أن يحيا فى جزيرة نائية بمفرده ، لأنه فى هذه الحالة تحمل عزلته معه المجتمع الذى يستمد منه سنده وقوته ، أما حالته الراهنة فقد انفصل تماما عن المجتمع أو بمعنى آخر أصبح هناك حاجز بينه وبين المجتمع . إذا قدر للمجرم أن يعترف بجريمته ، فإنه عندئذ يعود إلى المجتمع ويشعر باندماجه فيه ، وفى هذه الحالة يتعامل الناس معه لا مع شخص آخر . ذلك هو المجتمع الذى يتضمن من القوة ما يجعل المجرم يعترف بجريمته ، على الرغم من أنه قد ارتكب جريمته ولم يشاهده إنسان أو يترك من ورائه دليلا يودى إلى التعسف عليه . وقد لا يعترف المجرم بهذه الصورة ، فيكتفى بالاعتراف إلى صديق أو إلى رجل فاضل . وباعترافه بجريمته إلى شخص واحد ، يعاود اتصاله بالمجتمع ، وإن كان ذلك يتم عند نقطة واحدة " افتراضا لم يشعر الفرد باندماجه فى المجتمع ، على الأقل يشعر بأنه بجانبه ، وأنه قريب منه ، وأنه لم يعد غريبا عنه ، وأنه فى جميع الأحوال لم يعزل عنه تماما ، مع ما يحمله فى نفسه تجاه المجتمع " (١٢).

وحتى نتعرف على مدى ارتباط الفرد بالمجتمع علينا الوقوف على حقيقة هذه العلاقة . فى المواقف العادية ، نحن نتصرف وفقا لما تعلمه علينا الواجبات دون أن نفكر فيها . ولكن إن كان علينا أن نستحضر هذه الواجبات فى كل عمل نقوم به ، وأن نقوم بعمل صياغة لمثل هذه

الواجبات، لأدى ذلك إلى اعتبار الواجب بمثابة عبء ثقيل ، غير أن العادة تعفينا من ذلك . وحسب الإنسان في كثير من الأحوال أن يستترك لنفسه العنان ، فسيجد أنه يقدم للمجتمع ما يطلب منه . بالإضافة إلى أن المجتمع قد ساعدنا كثيرا في هذا الصدد ، بأن وضع بيننا وبينه كثيرا من الوسطاء ، فكل فرد منا له عائلة ومهنة ، علاوة على أنه ينتسب إلى ناحية ومركز ومقاطعة ، فإذا كان اندماج طائفة من هذه الطوائف في المجتمع كاملا ، كان على الفرد أن يقوم بواجباته تجاه طائفة ، وفي هذه الحالة أدى ما عليه إزاء المجتمع . إن المجتمع هو الذى يحدد حياة الفرد اليومية ، وحياته مع أسرته ، ومهنته التى يزاولها ، والفرد فى كل هذه الحالات ليس أمامه سوى الخضوع لمثل هذه الأوامر ، وأن ينصاع للواجبات . وعلى المرء فى كل موقف أن يختار ، ولذا يتم الاختيار بشكل طبيعى ، لا يتناقض مع القاعدة التى رسمها المجتمع ، وفى الوقت نفسه لا نشعر بما نفعل ، علاوة على عدم شعورنا بجهد يبذل فالمجتمع حدد لنا الطريق، وما علينا إلا أن نمسير على هذا الدرب الذى رسمه لنا . إذا أخذنا الواجب من هذا المنطلق الذى تناولناه ، نجد أنه يتحقق بشكل آلى ، ولا يكلف الإنسان شيئا سوى أنه يرضى الزمام لنفسه ، فيحقق الواجب بما يمليه عليه المجتمع . غير أن هذه الصورة من الواجب ليست هى الصورة الوحيدة بمعنى أن الواجب ليس دائما هكذا ولكن توجد صورة أخرى من الواجب ألا وهى الصورة التى يبدو فيها التوتر ، عندئذ نجد أن الواجب يأخذ شكلا قاسيا صلبا ، بالطبع يوجد سبب أدى إلى ذلك ، يتمثل هذا السبب فى أن هناك حالات تقتضى فيها الطاعة مقاومة للذات . ومثل هذه الحالات وإن كان حدوثها نادرا ، فإنها ملحوظة ، لارتباطها بوعى شديد ، ويحدث ذلك فى حالات التردد.



وفى الواقع إن هناك ارتباطا وثيقا بين الوعى والتردد أو بمعنى أصح إن الوعى هو التردد نفسه . فمهما كان القيام بالواجب أمراً طبيعياً ، فإن الإنسان يجد فى نفسه بعض المقاومة . نجد أن هذا الرأى يتضمن كثيراً من الصواب ، صحيح إنه من السهولة بإمكان أن نظل داخل المجتمع ، ولكننا نتذكر أن دخولنا المجتمع احتاج منا بعض الجهد ، وخير دليل على ذلك ما نلاحظه لدى الطفل من تمرد وما نقوم به من محاولات لتهدئته ، حتى يتسنى لنا أن نفطره على النظام داخل المجتمع " وبرغم عدم استشارة الفرد لنفسه تجاه كل واجب من الواجبات إلا أنه يشعر بموافقته للضمنية عليها " (١٣).

وهنا نجد "برجسون" يعتمد على التشبيهات ليقرب الصورة التى يريد أن يؤكد عليها ، وهى أن الفرد حيال المجتمع شأنه شأن الفارس ما عليه إلا أن يستسلم للجري ، وإن كان عليه فى البداية أن يستقيم على المسرج . لكنه هل يعنى هذا أن الواجب يتم تحقيقه آلياً دون معاناة ، طالما أن الفرد انصهر داخل المجتمع وأصبح يحقق الدور المنوط به ، أم أن هناك عقبات تقف حجر عثره فى سبيل تحقق الواجب ؟ هنا ينقلنا "برجسون" إلى التفرقة بين الواجب الذى يتم دون معاناة أى أنه واجب مرتبط بالعادة وبين الواجب الذى يعترضه كثير من العقبات . وما نريد أن نؤكد عليه أن تلك العقبات هى عقبات مرتبطة بالشخص الذى عليه أن يؤدي الواجب أو بمعنى آخر بين ما يرغب فيه وبين ما يجب عليه أن يقوم به . تلك التفرقة بين ضربين من الواجب هى فى رأى "برجسون" لو أخذ بها الفلاسفة لاستطاعوا أن يتجاوزوا خطأ جسيم أفسد كثير من النظريات الأخلاقية ، ومع ذلك لاقتصرهم على تعريف الواجب بأنه حالة من القلق والتوتر ، وجهد يقوم به الفرد نفسه ، مما ترتب عليه اعتبار الواجب حادثاً متميزاً لا يمكن

مقارنته بغيره ، يتجاوز جميع الحوادث ، أو بلغة " كانط " كالجوهرة تستمد قيمتها من ذاتها . وعندما نتحدث عن الواجب يقفز إلى ذهننا " كانط " الذى جعل الواجب من أجل الواجب ذاته ، حيث لا يرتبط بالرغبة أو المنفعة وأن الإرادة الخيرة تعمل بناء على نداء الواجب ، ويجب ألا يخضع الواجب لأى تأثير حس أو موقف شخصى أو انفعالى ، ولا يخضع سوى إلى العقل " إن الضرورة العملية للفعل طبقا لهذا المبدأ ، وهو الواجب ، لا يستند مطلقا إلى المشاعر والانفعالات والميول ولكن يستند فقط إلى العلاقة بين الكائنات العاقلة . فى هذه العلاقة يجب أن تكون إرادة الكائن العاقل دائما كمشرعه ذلك أنه لا تستطيع علاقة أخرى أن تقدمه كغاية فى ذاته " (١٤).

وفى هذا الصدد يذهب د/ زكى نجيب محمود إلى أننا " نرى الأخلاق عند كانط مهمتها البحث عن المبادئ الأولية القبلية التى تبرر أحكامنا الاخلاقية ، أو بعبارة أخرى هى البحث عن مبدأ الواجب الذى يصدر عنه إلزامنا بأداء الواجب لذاته " (١٥).

من الطبيعى أن يوجد اختلاف بين لغة " كانط " و " برجسون " فى الأخلاق نتيجة اختلاف المنطلقات ، من فيلسوف يسمو بالأخلاق وينظر إليها على أنها متعالية لا ترتبط بالنتائج العملية علاوة على مفارقتها وسموها عن المجتمع وبين فيلسوف ملتصق بالمجتمع لا يتجاوزه . فنجد "برجسون" يذهب إلى أننا ملزمون بكثير من الواجبات ، ومن الطبيعى أن نخضع . لمثل هذه الواجبات ولكن قد يحدث ، استثناء فنقاوم فإذا حدثت المقاومة ترتب عليها القلق والتوتر ، يودى هذا إلى التصلب ، وبالتالي ننسب إلى الواجب هذا المظهر الجامد . يفكر الفلاسفة فى هذا التصلب وذلك عندما يرجعون الواجب إلى عناصر عقلية .

## الفصل الثالث

### الواجب والعقل

وهنا نتناول الواجب لنتعرف على المواقف المختلفة التى قد يقفها الإنسان إزاءه . نجد أن هذه المواقف تتمثل فى موقفين ، الموقف الأول هو أن نسير فى الطرق المحددة لنا من قبل المجتمع ونسلم بها ، وأما الموقف الثانى فيظهر بوضوح عند التردد والتفكير ، وفى هذه الحالة نتناول الموضوعات تناولا جديداً . ولكن الموقف الأول يمثل موقف الأغلبية من الناس . ويتعامل مع الواجب على أنه نتاج العديد من العادات التى تعودنا أن نخضع ونستجيب لها نمشياً مع المطالب الاجتماعية . ولذا يستمد الواجب من المطالب الاجتماعية وجوده . بينما ذهبت الفلسفة إلى أن العقل مصدر الواجب ، انطلاقاً من وظيفة العقل المنظمة لدى الكائن العاقل ، حتى يتحقق الانسجام وعلى هذا " لا يخرج اعتقادنا هذا عن كونه اعتقاد بأن الجناح فى الآلة هو الذى يجعلها تدور " (١٦).

والمطالب الاجتماعية يوجد بينها انسجام واتساق ويكمل بعضها بعضاً . فالإنسان وإن كانت أخلاقه حظها ضئيل من العقل ، فإنه بارتباطه بما تعلمه عليه المطالب الاجتماعية ، التى تستحوذ على الانسجام يظهر بوضوح بعض النظام العقلى فى سلوكه . وكلما كان المجتمع قريباً إلى الطبيعة ظهر بوضوح عدم الانسجام . وخير دليل على ذلك عند البدائيين نجد أن كثيراً من الأوامر والنواهي لديهم مرتبطة بخرافات وأفكار غير محددة . وعلى الرغم من ذلك نجد هذه الأوامر والنواهي عديمة القيمة ، بل إنها

لا تخلو من الفائدة ، انطلاقا من أن خضوع الجميع لقواعد محددة حتى وإن كانت ساذجة تصبح عاملا مؤثرا في ترابط المجتمع " وبناء عليه ، فإن المنطق متمكن في المجتمعات الراهنة . يكفي للمرء أن يسلم بهذه المبادئ، حتى يحيا طبقا للعقل ، وحتى إن لم يعقل سلوكه " (١٧).

وهكذا نجد أن الواجب يطبق على الإرادة لدى الأفراد إطباق العادة. وكل واجب يتبعه العديد من الواجبات المترابطة ، ويتم الاستفادة منها جميعا حتى يتسنى لهذه الواجبات جميعا الضغط علينا لنتم الاستجابة . وبالقسط يختلف الواجب عند "برجسون" عنه عند "كانط" اختلافا واضحا بل ، إنهما على النقيض تماما . لأن الواجب عند "كانط" يأخذ شكلا مطلقا. وحتى تكون صورة الواجب أقرب إلى الوضوح ، نقوم بعرض مثال من الأمثلة العديدة التي يقدمها "كانط" للتفريق بين الفعل الذي يتفق مع الواجب ، والفعل الذي يختلف مع الواجب . نجده يذهب إلى أن الإنسان حينما يحافظ على حياته بطريقة تلقائية ، فإن محافظته هذه لا تتفق مع الواجب عند "كانط" ، وأنها تتفق مع الواجب عندما يأس الإنسان من الحياة ، نتيجة ما يتعرض له من كوارث ومصائب ، ويصبح من المفيد له أن يتخلص من الحياة ، إذا حافظ على حياته وامتنع عن الانتحار على الرغم من عدم رغبته في الحياة ، هنا يتسق فعله مع نداء الواجب وفي هذا يذهب "كانط" إلى أنه "عندما يدمر الحزن بدون أمل الرغبة في الحياة، وعندما يحب الشخص نفسه حياته ، وهو قوى الروح ، على الرغم مما يواجهه من يأس ، وإذا كان يرغب في الموت ، ومع ذلك يستمر في الحياة التي لا يريد لها لا بسبب الميل أو الخوف ولكن بمقتضى الواجب عندئذ فإن قاعدته ذات مضمون أخلاقي " (١٨).

وهكذا نجد أن الواجب يأخذ بعداً سامياً فريداً لدى "كانط" ، بينما عند "برجسون" يأخذ بعداً مختلفاً . وحتى يتسنى لنا أن نلقى الضوء على الواجب عند "برجسون" فيضرب لنا مثالا على أمر مطلق محض . للتخيل نملة وقد دب فيها التفكير للحظة ، فستعرف أنها مخطئة فيما تمارسه من عمل دائم مستمر لا ينقطع في سبيل الآخرين . عندئذ يسطر عليها التردد ويتسلل إليها الكمل . ولكن هذا الموقف الذى يتمثل في التردد والكمل لن يستمر إلا للحظة ، وهى اللحظة التى استغرقها التفكير . وعند انتهاء اللحظة تستعيد الغريزة مكانتها ، وتعود النملة إلى عملها الذى كانت عليه ، وعندئذ سيترف العقل بأنه يجب لأنه يجب . والأمر المطلق المحض هو من طبيعة غريزية " ومما لا شك فيه ، أن ميل النشاط المبذول لاتخاذ شكل الغريزة ، على كونه عاقلا أخذ هذا الأمر الشكل المطلق . والنشاط الذى بدايته العقل ثم يأخذ محاكاة الغريزة هو ما نطلق عليه العادة عند الإنسان " (١٩) .

ويطالبنا "برجسون" بالتخيل ، وهو يلجأ إلى ذلك كثيرا حتى يتسنى لنا فهم ما يرمى إليه ، فيذهب إلى أننا لو تخيلنا اتجاهين للتطور ، وهى نهاية هذين الاتجاهين مجتمعان . فمما لا شك فيه أن المجتمع الغريزى سيبدو طبيعياً ، لأن ما يربط بين أفراد خلية النحل أشبه بما يجعل خلايا الكائنات الحية مرتبطة ببعضها البعض . وامتداداً لموقفنا التخيلى ، لو افترضنا أن الطبيعة على الطرف الآخر ، أرادت أن توجد مجتمعات يحصل فيها الأفراد على بعض من الحرية ، مما يجعل لديهم القدرة على الاختيار . عندئذ ستحاول الطبيعة أن تجعل النتائج التى يحصل عليها العقل متسقة مع نتائج الغريزة ولذا نستعين بالعادة ، وسيكون مجموعة هذه العادات هى

أساس المجتمعات ، وفى الوقت نفسه شبيهة بالغريزة من كل الوجوه "إن هذا ما أطلقنا عليه مجموع الإلزام. نعم إن المجتمعات المرادة هنا هى المجتمعات البدائية. إن المجتمع الإنسانى مهما يتعقد ويصل إلى الروحية، فإن الركائز التى يرتكز عليها ، أو قل نية الطبيعة فيه ، مستمرة كما هى لا تتغير" (٢٠).

وهكذا نجد أن العقل والغريزة صورتان من صور الوعي ، كانا فى البداية متداخلين ، ثم أخذتا فى النمو والانفصال. وكان هذا النمو فى خطين كبيرين فى سلسلة تطور الحياة الحيوانية ، الحلقيات والفقرات. فكان فى نهاية الخط الأول غريزة الحشرات ، وفى نهاية الخط الثانى العقل. وإذا وصل العقل إلى ذروته فى الإنسان تصل الغريزة إلى ذروتها فى عالم الحيوان لدى النمل والنحل. والاختلاف بين العقل والغريزة ليس اختلافاً فى الدرجة بل أنه اختلاف فى الطبيعة ، حيث يذهب برجسون إلى أنه "لا وجود للعقل إلا ويكشف عن آثار للغريزة ، كما أن وجود الغريزة يحتم إحاطتها بحاشية من العقل التى تسبب كثيراً من الأخطاء. يوجد فى الغريزة العقل سواء كان وجوده قليلاً أو كثيراً ، فقد توصل بعضهم أنه لا اختلاف بين العقل والغريزة من حيث النوع ، ولا يوجد فارق فى درجة التعقيد ، ومن الممكن أن نعبر عن أحدهما بالمصطلحات التى توائم الآخر. وفى الواقع إنهما لا يتواءمان إلا إنهما يكمل أحدهما الآخر. وهما لا يتواءمان إلا أنهما مختلفان" (٢١).

والمعرفة الغريزية معرفة باطنه مليئة ، بينما المعرفة العقلية معرفة خارجية خاوية. على أن الابتداء للغريزة وليس للعقل ، انطلاقاً من أن "حاجة الغريزة إلى العقل أقل من حاجة العقل إلى الغريزة ، وذلك لوجود

درجة عالية من التنظيم العضوى لدى الحيوان ، وسما إلى ذلك من خلال الغريزة فحسب»<sup>(٢٢)</sup>.

وتتحصّر وظيفة الغريزة فى تقرير ما هو كائن ، بينما المعرفة العقلية تتحصّر وظيفتها فى بيان الصلة بين المقدمات والنتائج على اعتبار أن "العقل يفهم الواقع ، بينما الغريزة هى التى تكبر سلوكنا"<sup>(٢٣)</sup>.

وكلاهما أى الغريزة والعقل يستخدم الآلات. يبتكرها العقل ، ولذا هى متغيرة ، وغير ثابتة ، بينما الغريزة اعتمادها على ما تقدمه لها الطبيعة ، فهى ثابتة غير متغيرة ولذا "استطاع الإنسان أن ي اخترع من الآلات ما لم يخطر للحيوان على بال ، بينما ظل الحيوان أسيراً لتلك الآلات التى أمدته بها الطبيعة وبالتالي فإن الذى يميز الإنسان العمل وليس الحكمة. فهو إنسان صانع Homo Faber قبل أن يكون إنساناً حكماً Homo sapiens"<sup>(٢٤)</sup>.

وفى المجتمع الحيوانى النظام ثابت لا يتغير ، لكن المجتمع الإنسانى متغير غير ثابت ، انطلاقاً من طبيعته المفتوحة القادرة على إحداث التقدم والتطور. وكلما أخذنا فى البحث عن مصدر الواجبات المختلفة وجدنا أن الواجب أقرب إلى أن يكون ضرورة من الضرورات ، وهو بهذا يقترب من الغريزة بكل ما نتصف به من قهر. لكن من الخطأ الجسيم أن نرجع الواجب إلى الغريزة ، انطلاقاً من أن "المفترض قوله على الدوام انه ليس هناك واجب غريزى فى مضمونه ، وإن مجموع الواجب كان يمكن أن يكون غريزيا فى المجتمعات الإنسانية لولا وجود عقل وإمكانية للتغيير"<sup>(٢٥)</sup>.

وهنا نجد سؤالاً يطرح نفسه ألا وهو ماذا يكون نمط الواجب لو أن المجتمع الإنساني كان غريزياً فقط ولا يمتلك العقل ؟ عندئذ لن يكون للواجب معنى ويفقد طابعه. حيث إننا لا نستطيع أن نذهب إلى أن عناصر الكائن الحي ، المرتبطة بنظام محكم ، أن لديها إحساساً بالواجب. فالغريزة الاجتماعية في النمل ، وهذا يعنى الدافع القوي الذي يجعل النملة تقوم بعملها على أكمل وجه ، لا تختلف تلك الغريزة فسى شئ عن الخلية الموجودة في الكائن الحي التي لا تمتلك سوى العمل في إطار المصلحة العامة. وكلا الموقفين لا نستطيع أن ندعى بوجود واجب كل ما هنالك ضرورة تسيطر من أجل تحقيق هدف بعينه لا يمتلك الكائن الحي سوى الخضوع له "لأن وجود الحرية للكائن الحي تشعره أنه ملزم بواجب. ولو تفحصنا كل واجب على حده لوجدناه متضمناً الحرية" (٢٦).

ولكن حديثنا إلى الآن لم يتجاوز المجتمعات المتوقعة على ذاتها التي تقتصر إلى الانفتاح على كافة المجتمعات. إنهم يفضلون الغموض ، ولا يقطعون بشئ ، ولسان حالهم يذهب إلى أن المجتمع الإنساني متحقق الآن، ولا حاجة بنا إلى أكثر من ذلك. وهنا يطرح سؤال نفسه إذا كان المجتمع الإنساني غير متحقق ، وهناك مطلب اجتماعي من وراء الواجب الأخلاقي المتمثل في احترام حياة الآخرين وما إلى ذلك ، فما هو المجتمع الذي ننادى به ؟ بدون شك هو المجتمع الإنساني أو المجتمع المفتوح ، الذي يحترم الإنسانية متجاوزاً النظرة الضيقة. فلنستعرض ما يحدث فسى أزمنة الحرب ، سنجد أن القتل والخيانة والكذب والغدر من الأمور المباحة بل والمشرقة. وهنا نجد أنفسنا وجها لوجه مع حقيقة لا اختلاف عليها ، أكان يمكن أن يحدث هذا التبدل بهذه البساطة والسرعة ، لو أننا كنا نقف موقفاً إنسانياً ؟ لن يقف المجتمع إزاء ما يحدث هذا موقفاً سلبياً بل يحاول



الدفاع ، ولكن ماذا يجدى الدفاع فيما هو مائل أمامنا من أمور لا خلاف عليها وليست فى حاجة إلى تعليق. سيذهب إلى أن الواجبات التى يفرضها نحو الإنسانية ثابتة ولا اختلاف عليها ، كل ما هنالك توجد بعض الظروف القهرية التى لا نملك تحاشيها ، نقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق الواجبات. ومما يتفق مع طبيعتنا الفكرية إننا نعتبر الأمور الدائرة أموراً غير طبيعية وينبغى ألا نعتد بها ، ومن أمثلة ذلك للمرض. فى حين ماذا يقول الواقع. يذهب إلى أن المرض شأنه شأن العافية فالعافية إذا نظرنا لها عن كثب وجدنا أنها جهد مستمر يبذله الإنسان لتحاشي المرض وكذلك الإنسان فى حالة السلم ، نجد أن السلم لا يخرج عن كونه تهيؤاً للدفاع أو هجوم، فهو على كل حال استعداد للحرب. يؤكد هذا على أن كل هذه المبررات لا معنى لها ، ولا تخرج عن كونها هروباً من الواقع الذى نحيا فى كنفه. والذى يؤكد على أن هذه المجتمعات مجتمعات مغلقة نظرتها ضيقة الأفق حيث توجد الغريزة الاجتماعية فى أعماق الواجب الاجتماعى وهى ثابتة بعض الشيء ، وتستهدف دوماً مجتمعاً مغلقاً ، مهما كان اتساع هذا المجتمع ، نعم إنها محاطة بأخلاق أخرى ، ولذلك تشدد من أزر هذه الأخلاق وتمنحها شيئاً من قوتها. ولكنها لا تستهدف الإنسانية بأكملها ، لأن الأمة مهما اتسعت فالفرق بينها وبين الإنسانية كالفرق بين المحدود واللامحدود وما بين المغلق والمفتوح<sup>(٢٧)</sup>.

وهكذا نجد أن الأخلاق المغلقة هى الأخلاق التى تتفق مع فكرة الواجب التى ينادى بها كانت<sup>(٢٨)</sup>.

وهكذا نجد أن تناولنا للواجب إلى الآن تم فى إطار ضيق ، وعلينا الآن أن ننقل إلى الواجب بمعناه الأعم والاشمل ، أو بمعنى آخر ننقل من النظرة الأخلاقية الضيقة إلى النظرة الأخلاقية الكاملة .

## الفصل الرابع

# الأخلاق الكاملة

### ١- الأخلاق الإنسانية :

إن الأخلاق الإنسانية هي أخلاق قد تجسدت في شخصيات متميزة ، ولها وجود في كل الأزمنة ولا يقتصر وجودها على زمن دون غيره. وقبل أن تعرف الإنسانية القديسين في المعتقد المسيحي ، فقد عرفت حكماء اليونان وأنبياء بني إسرائيل ، وشخصيات بونية وغيرهم كثيرين. وهنا نجد فرقا واضحا وذلك فيما يتعلق بالأخلاق التي تحدثنا عنها آنفاً وبين الأخلاق المتجسدة في شخصيات. وبالقطع هو فرق واضح لا مجال للاختلاف فيه ، فبينما الأخلاق الأولى هي أخلاق لا شخصية نجد أن الأخلاق الثانية هي أخلاق شخصية ، لا وجود لها بانفصال عن شخصيات ممتازة نتخذها قدوة نحتذى بها. وهكذا نجد أن الأخلاق الأولى تستمد عموميتها من موافقة الناس على قانون من قوانينها ، بينما الأخلاق الثانية تستمد عموميتها من محاكاة الناس لمثال يهتدون به ، وهنا نجد أنفسنا بازاء تساؤل "لماذا كان للقديسين من يحاكيهم ، وكيف كان لعظام الرجال أن تجرى الإنسانية في أثرهم ؟.. ولم يحتاجوا إلى أن ينادوا ، بل كان يكفي وجودهم ، لأن وجودهم وحده نداء. فبينما نلاحظ أن الواجب الطبيعي ضغط ، لا ترى في الأخلاق الكاملة إلا نداء"<sup>(٢٩)</sup>.

ومثل هذه الأخلاق المتجسدة في شخصيات ممتازة ، نجد أن هناك تقارباً بين "وليم جيمس" و "هنري برجسون" ، وذلك فيما يتعلق بالتأثير

البالغ الذى تتركه مثل هذه الشخصيات ، والمساعدة البالغة التى ينشرونها أينما وجدوا. وفى هذا يذهب وليم جيمس إلى أن "الحالة النفسية الكابحة للرفض الغريزى يبرهن عنها ليس فقط بواسطة إظهار الحب للأعداء وإنما بإظهاره لأى شخص كرهه. فى سجلات القديسين نجد مزيج غريب فى البواعث المانعة فى هذا الاتجاه. يلعب النقش دوراً ، وتمشياً مع المحبة الخالصة والبسيطة نجد الوضاعة أو الرغبة فى انتزاع الامتياز إسم الله .. تعتبر رعاية المرضى مهمة انحرف لها بقوة الدينيون ، حتى فضلاً عن حقيقة أن التقاليد الكنيسية مهدت لهذا الطريق ولكن فى سجلات هذا النوع من المحبة نجد حالات تطرف مثيرة من الإخلاص مفهومه فقط بجنون التضحية الذاتية المثارة فى الوقت نفسه. "فرانسيس أف اسيس" تقبل مرضاها المصابين بمرض الجرب ، و"مارجريت مارى الكوك" ، و"فرانسيس اكس فاير" و "القديس جون" وآخرون قيل أنهم جلبوا حالات الفرحة لمرضاهم بالسنتهم الموقرة ، وأن حياة هؤلاء القديسين أمثال "اليزابيث أف هنجرى" ، "ومدام سنل" ، مليئة بنوع من المتعة فى مستشفى الصديد مما لا يتناسب عما قرئ عنهم ويحملنا على العجب فى نفس الوقت" (٣٠).

ولا يعرف طبيعة مثل هذه الشخصيات إلا من أتيح له الوقوف أمام شخصية من هذه الشخصيات الأخلاقية الكبيرة. وكل إنسان منا ، مرت به مواقف جعلته غير راض عما يسلكه ، فيجد نفسه إزاء تساؤل عما كان ينبغي عليه أن يكون موقفه ، لأن فلان أو فلان ينتظر منه فى هذه المواقف عملاً معيناً. قد يكون فلان هذا قريباً أو صديقاً نستحضره بالفكر ، وقد يكون إنساناً لم نراه نهائياً ، ولكن سمعنا أخباره فأصبحنا أسرى لما سمعنا

عنه ، وأصبحنا نخشى غضبه ويسعدنا رضاه. وليكن الشخص من يكون ، ولكن هنا حقيقة ينبغي أن نقرها ، وهي أن الأخلاق الأولى مرتبطة بواجبات غير شخصية أقوى وأكثر تأثيراً ، وأما الأخلاق الثانية فهي على النقيض من ذلك. على اعتبار أن قواعد مبعثره ويقبلها العقل دون أن يكون لها تأثير على الإرادة ، ولكن سرعان ما تتحول إلى قوة جارفة ، وذلك عندما تنصهر تلك المواقف المتعددة في شخصية الفرد. تلك هي الأخلاق القوية ، ولكن علينا أن نقف على مصدرها ونقترب لننتعرف على سر تميزها وتفردها. وحتى يتسنى لنا ذلك علينا أن نعود ثانية لنقف على حقيقة الأخلاق الأولى. سنجد أن الأخلاق الأولى هي التي تستحوذ على تفكيرنا عندما يسيطر علينا شعور بأننا ملزمون إلزاماً طبيعياً ، وفوق هذه الواجبات هناك واجبات أخرى غير واضحة نتصورها ، كالتضحية والمحبة والتفاني. تلك الكلمات التي ننطقها عند تفكيرنا في الواجب ، ويكفى أن تكون موجودة على أمل أن تتاح لها الفرصة لتمتلي بفاعليتها ويكون لها تأثير ، وقد لا يتاح لها مثل هذه الفرصة قلة من الناس لا تهتز إرادتهم إلا اهتزازاً بسيطاً ، وتكون الهزة من البساطة بحيث يمكن أن يطلق عليها أنها لا تخرج عن كونها واجباً اجتماعياً ، مع أنها تتمدد وتنمى، ولكنها سرعان ما يعثرها الضعف. وإذا امتلأت الطبيعة بالمادة ثم اضطربت المادة بالحياة ، فإن هذا يعد مؤشراً لميلاد حياة جديدة تعلن عن نفسها ، عندئذ ندرك انبثاق أخلاق جديدة<sup>(٣١)</sup>.

وقد نقف عند حب الإنسانية على اعتبار أنها الصفة التي تميز هذه الأخلاق الجديدة ، ومع ذلك إنها لا تعبر عن حقيقة هذه الأخلاق. لأن حب الإنسانية غير قائم بذاته ، وأن تأثيره لا يتم مباشرة ولكن بحاجة إلى

وسيط. والذين يعملون في مجال التربية يعرفون أن التغلب على الأنانية لا يتحقق من خلال نصحننا لهم بالغيرية. حتى إننا نجد نفسا كريمة تتفانى بصدق ، فإذا عرفت أن عملها هذا من أجل النوع الإنساني أصابها الإحباط، لأن الموضوع غير محدد. فإذا كان حب الإنسانية هو جوهر هذه الأخلاق ، فإن هذا ليشبه فكرة الوصول إلى نقطة يتحتم اجتياز المسافة الوسيطة. يعد هذا التشبيه صوابا من وجه ، وخطأ من وجه آخر. فإذا استحوذ على تفكيرنا المسافة ، والنقاط التي لا حصر لها والتي علينا أن نقطعها نقطة نقطة ، أصابنا اليأس والإحباط كما أصاب سهم زينون\*. أما إذا طوينا المسافة طيا ، ولم يستحوذ علينا سوى الغاية ، فإن فعلنا عندئذ لا يخرج عن كونه فعلاً بسيطاً ، ونتجاوز هذا التعدد الذي لا نهاية له. وهنا نجد أنفسنا بإزاء تساؤل يطرح نفسه ، ما هي غاية هذا الجهد بالضبط ؟ يستوجب علينا للإجابة عن هذا التساؤل أن ننظر إلى الإنسان وذلك فيما يتعلق بوضعه الأخلاقي ، سنجد أنه فرد في جماعه وبينهما اندماج قسوى. ومن المشكوك فيه أن تتفق المصلحة الجزئية مع المصلحة العامة بشكل كامل. وليس بخاف علينا تلك الصعوبات التي واجهت المذاهب النفعية في الأخلاق عندما تبنت المبدأ القائل بأن الإنسان لا يعترف سوى بمصلحته الخاصة ، وأنه عندئذ ينشد مصلحة الغير. لكننا نجد أن الإنسان في سعيه إلى المصلحة الشخصية في الغالب يسلك سلوكاً متناقضاً مع ما تقتضيه المصلحة العامة. لأن الفعالية العقلية عندما تختار ما بين المصلحة الشخصية والغيرية تصطدم بوجود الفعالية الغريزية التي أوجدتها فينا الطبيعة. منذ البداية ، وفيها يكاد يختلط الفردي بالجماعي. وهذا ما يتم داخل قرية النمل أو خلية النحل. بهذه الغريزة ربطنا الإلزام الذي يكون فيه

ما هو فردى واجتماعى مختلطين لا يتميز أحدهما عن الآخر. وقياسا على هذا الإلزام نستطيع إلى أن نذهب إلى أن الذى يقابل هذا الإلزام ، هو فرد متوقع على ذاته ، ومجتمع منطوق على نفسه. ولكون النفس فى هذا الوضع فردية واجتماعية تكور معا فى دائرة واحدة ، لذا فهي مغلقة "وأما بالنسبة للوضع الآخر فهو وضع النفس المفتوحة. فلأى شئ تتفتح هذه النفس ؟ لو ذهبنا أنها تحتوى الإنسانية بأسرها ما ذهبنا بعيداً ولا أعطيناها حقها ، فإن حبها يتسع ليشمل الطبيعة كلها ، بما فيها الحيوان والنبات.. إن المحبة لتظل باقية فى نفس المحبوب حتى لو لم يوجد حياً غيره على وجه الأرض" (٣٢).

وهكذا نجد أن هذا الوضع الجديد مكتسب — ويتطلب جهداً مستمراً. فكيف تسنى لهؤلاء الرجال بما يحملون من نفوس مفتوحة أن يكونوا قدوة يقتدى بها أناس آخرون ، وما مصدر تلك القوة التى يمتلكها هؤلاء أصحاب النفوس المفتوحة لتعادل الضغط الاجتماعى ، ما لا شك فيه إنها قوة الحساسية. فليس هناك تأثير مباشر على الإرادة إذا استثنينا الغريزة والعادة سوى الحساسية. علاوة على أن العاطفة تشبه الإلزام. ونحن إن كنا نستخدم الحساسية والعاطفة ، ثم بعد ذلك الانفعال ، فإننا يجب أن ننوه إلى أنه لا يشترك الواحد منهما مع الآخر إلا فى أنه حالة انفعالية مختلفة عن الإحساس. والانفعال هو الذى يدفع بالعقل إلى الأمام ويحطم الحواجز ويذلل الصعوبات. وعندما يتحد الانفعال بالعناصر العقلية فإنه ينعشها ويبعث بها الحياة. والانفعال قد يوجد فى هيئة تصورات عقلية ، عندئذ يغدو مذهباً أخلاقياً ، ولكننا نفشل فى استنتاج الأخلاق من هذا المذهب ، لأن التفكير النظرى لا يتسنى له أن يخلق إلزاماً ، ومهما تبلغ تلك النظرية

من دقة وتميز ، ففي مقدرتي دوماً أن أرفضها ، وحتى إن وافقت عليها  
فأنا أمتلك الحرية في التصرف بشأنها كما أريد لو وجد مناخ الانفعال  
واستشعرته فنفذ إلى داخلي ، عندئذ فإنه يثيرني ، فأفعل ما يريد لا عن  
كره أو ضغط ولكن عن ميل طبيعي لا أُرغب في مقاومته<sup>(٢٣)</sup>.

أما إذا قسمنا الأخلاق إلى جزأين ، سنجد أن الجزء الأول يتكون من  
واجبات يرتبط الإلزام فيها بضغط المجتمع على الفرد ، ونحن هنا بإزاء  
اتفاق دون الحاجة إلى جهد لإثبات ذلك ، لأن هذه الواجبات مرتبطة بما  
يحدث في الحياة اليومية وقد صيغت أوامرها بصورة واضحة. أما الجزء  
الثاني من الأخلاق فإنه يعبر عن حالة عاطفية وهنا لا يقع الفرد تحت  
ضغط بل يتغير الموقف إلى جذب ، وهذا نجد الشك يسيطر على الكثيرين  
إزاء هذه الأخلاق. ويرجع ذلك إلى أننا غالباً ما نفشل في الوصول إلى هذا  
الانفعال في أعماق الذات. فلقد خلف الانفعال وراءه أوامر استقرت في  
الوجدان الاجتماعي ، وعندما كان يتكون التصور الجديد الكامن في هذا  
الانفعال. فنحن هنا إزاء رماد انفعال قد انطفأ. عندئذ نجد أن الأخلاق  
الأولى والثانية لا يوجد بينهما اختلاف. ولكننا إذا ما حركنا الرماد ، سنجد  
أن هناك أجزاء منه مازالت حارة ، ثم سرعان ما يصدر عنها الشرارة ،  
عندئذ يمكن أن تشتعل النار ثانية ، والاشتعال لا يكون فجائياً ولكن يتم  
بشكل تدريجي ، وهنا تتضح صفة أكثر التصاقاً بالأخلاق الثانية وهي أن  
تأثيرها لا يتم بشكل منفصل عن بعضه البعض ، كما يحدث بالنسبة إلى  
مواظ الأخلاق الأولى ، فما تلبث إحدى هذه المواظ أن تكتسب القوة  
والفعل وتتخلص من وجودها التجريدي ، حتى تسير في ركبتها كافة  
المواظ ، فتلتقي جميعاً في هذا الانفعال الحار ، وكأننا بإزاء الذين شعروا

به فأودعوه فى الأفراد فى حينه ، فتدب الحياة فيها من جديد. هؤلاء هم الأنبياء والمتصوفون والقديسون والمصلحون ، وما نصادفهم فى الحياة من أبطال الأخلاق المغمورين الذين يتساوون من وجهة نظر "برجسون" مع كبار الأبطال المعروفين "لأنهم الآن موجودون ننساق فى آثارهم ، ونسير على دربهم ، ونرتبط بهم كما نرتبط بجيش من الغزاة الفاتحين. وحقا إنهم غزاة فاتحون ، لأنهم محوا مقاومة الطبيعة ، وارتقوا بالإنسانية إلى مصائر جديدة" (٣٤) .

وهنا نجد أنفسنا إزاء حقيقة وجدنا من الضروري إلى أن ننوه إليها ، وهى أن هناك تقارباً بين "وليم جيمس" و "هنرى برجسون". كلاهما يقف على آخر ما وصل إليه التطور العلمى ، وكلاهما لديه اهتمام خاص بعلم النفس وموضوعاته ، ليس هذا فقط بل إن بدايتهما متشابهة فى دراستهما لعلم النفس ، حتى إنهما لهما السبق فى اكتشاف منطقة اللاوعى ، ولا نستطيع التحدث هنا فى هذا المجال الضيق عن أسبقية أحدهما فى هذا السبق للتقارب الزمنى ، حتى أننا نجد من تناولوا هذا الموضوع قد اختلفوا بشأنه. وكلاهما سخر الدراسات النفسية فى دراساته عن الصوفيين "وفى النهاية عندما جاء "وليم جيمس" وتناول التصوف ، أصبح أكثر وصفاً واقترباً من السيكلوجيا" (٣٥) .

وعندما يتناول "برجسون" التصوف يتحدث بلغة قريبة الشبه من "جيمس" الذى يذهب إلى أنه "كحقيقة نفسية فإن الحالات الصوفية ذات النوع الشديد هى عادة ذات سلطان فوق هؤلاء الذين أصيبوا بها. إنهم كانوا هناك ويعرفون أنه لى سدى بلا فائدة للعقلانية أن تقول كلمة بخصوص هذا" (٣٦) .



وكلاهما يؤكد على دور القديسين باعتبارهم من كبار الأبطال في تخلص المجتمع من الشر ، وذلك بما يتميزون به من صفات الخير ، ذلك لأنهم لا يواجهون الشر بالشر ولكن يواجهون الشر بالخير ، وذلك يساعد على نشر الأمان والوثام بين أفراد المجتمع ، وفي هذا يذهب "جيمس" إلى أن "محبة القديس تطور المجتمع ، وتجعله حيوى وضرورى .. القدرة على إهلاك الأعداء من الأفضل ، لكن اللا مقاومة عندما تتجح تحول الأعداء إلى أصدقاء ، وتجدد المحبة ذلك. القديسيون قوة مبدعة ، وجودهم ثورة في إيمانهم تمنحهم سلطة وتأثير لا يقاوم في مواقع حيث للرجال ذو الطبيعة الضحلة لا يستطيعون أن يحصلوا على تبصر دنيوى بدونهم" (٣٧) .

لقد أشار برجسون - كما ذكرنا سابقا - إلى الأنبياء والمصلحين والمتصوفين والقديسين ، فلنقترب منهم لنستمع إلى ما يقولون. إن ما يشعرون به هو شعور بالتححرر والانطلاق ، فكل ما يسعى إليه الناس من ثروة ولذة لا يلتفتون إليه قط ، بل ما يسيطر عليهم هو الخلاص وعندئذ يشعرون بالراحة التى تتقلب بعد ذلك إلى نشوة. فمن الطبيعى أن ترتبط نفس على هذه الهيئة بالنفوس الأخرى ، بل ترتبط بالطبيعة كلها. ومهما يكن من شئ فإننا نفشل في بلوغ حب الخير بالموعظة. ويحاول العقل جاهداً أن يقطع ذاته بما ينبغى أن يسلكه ولكن هيهات أن يحدث هذا ، فإن ما يجرى يتم على غير ما يصبو إليه. ما هو بسيط من وجهة نظر عقليه قد لا يكون كذلك من وجهة نظر الإرادة ، قد يذهب المنطق إلى أن هذا الطريق هو أقصر الطرق ، حتى إذا مارسنا التجربة اكتشفنا أنه لا يوجد طريق. وإذا أردنا أن نصل إلى الحب علينا أولاً أن نمر بالبطولة ، ولا تتم البطولة بالموعظة ، كل ما عليها أن تتواجد - أى البطولة - عندئذ تزلزل الناس

وتبحث فيهم الحيوية. ومن السخف أن نتحدث عن العقبات المادية ونحن  
بإزاء نفس تحررت هذا التحرر. فإنها لن تجيبك بأن العقبات ينبغي تفاديها،  
أو علينا تجاوزها بل ستجيبك بأن ليس لها وجودا. فلما نستطيع أن نقول أن  
هذا الإيمان يزلزل الجبال ، لأنها لا ترى جبالا ينبغي علينا أن نزلزلها.  
طالما أنك تفكر في العقبات فستظل كما هي ، وطالما تتظر إليها فأنت  
تقسمها إلى أجزاء ، وكل جزء بدوره نقسمه إلى أجزاء إلى مالا نهاية. أما  
إذا رفضت ذلك فإنك تستطيع أن تصل إلى ما تريد جملة واحدة كما فعل  
الفيلسوف عندما قام يمشى ليبرهن على الحركة ، فكان بهذا الفعل البسيط  
يقدم دليلا وفي الوقت نفسه يعد إجهاضاً لما زعمه "زينون" من أن اجتياز  
المسافة يتطلب جهداً لاجتيازها نقطة نقطة وأن هذا يتم تكراره إلى مالا  
نهاية ، مما يترتب عليه عدم وجود الحركة. وكان "زينون" قد توصل عن  
طريق محاولات عقليه إلى استحالة إثبات الحركة ، وقدم في ذلك حججاً  
عديدة نأخذ منها حجة "أخيل" كمثال للخلط بين الزمان والمكان ، ومؤداها  
أنه إذا فرضنا أن "أخيل" المشهور بأنه أسرع العدائين يسابق سلحفاة ، وهي  
من أبطأ الحيوانات ، وأن السلحفاة متقدمة عليه بمسافة قصيرة ، وأنهما  
يبدآن السباق في وقت واحد "فإن أخيل لا يمكنه أن يسبق السلحفاة إذ لابد أن  
يصل أولاً إلى المكان الذي بدأت منه السلحفاة تسير ، ولكن السلحفاة تكون  
قد تحركت عندئذ ويجب على أخيل أن يلحقها وهكذا كلما اقترب منها  
سبقته" (٣٨).

وفي الواقع إن "زينون" هنا يدرك الزمان على غرار المكان ، فإذا كان  
المكان مجزأ إلى مالا نهاية ، فإنه يرى أن الزمان مجزأ كذلك إلى  
مالا نهاية. ولما كانت اللانهاية مما يستحيل عبورها ، كانت الحركة

مستحيلة. فى الوقت الذى يرى فيه "برجسون" أن الزمان فعل بسيط غير قابل للقسمة ، وهو فى ذلك على النقيض من المكان. وبناء عليه فإن "أخيل" بعد خطوات معدودة سوف يلحق بالسلحفاة "لو سألنا أخيل أن يعلق على سباقه لقال : أنجزت سلسلة مؤثرة غير قابلة للتجزئة" (٣٩).

إذا ما نظرنا إلى كل عمل فى الحياة من الخارج وجدناه قابلاً للتحليل إلى ما لا نهاية. إذا نظرنا من الخارج إلى عين الإنسان وكيف يتم البصر، نجد أن هذا يتم نتيجة عمليات معقدة تعقيداً لانهائياً ، علاوة على تقسيم تلك العمليات إلى أجزاء لانهاية لها ، فى حين أن البصر يحدث بشكل بسيط لاتجزئ فيه "يعد هذا هو الفرق بين العملية الحقيقية التى تركز عليها الحياة، وبين المظهر الذى تظهر به للحواس التى تدركها ، ويقوم العقل بتحليلها. فهل يستعجب من نفس أصبحت لا تعرف معنى الحواجز المادية أن تعى خطأ أو صواب ، بأنها تذوب فى مبدأ الحياة نفسها" (٤٠) .

وتمشياً مع ما سبق نجد أنفسنا أمام نمطين من الأخلاق ، النمط الأول يمثل الإلزام فيه ضغط عناصر المجتمع بعضه على بعض ، ونتيجة هذا الضغط يتبلور بداخلنا على هيئة جملة من العادات ترتبط بها وهى بشكل عام شبيهة بالغريزة التى أوجدتها الطبيعة. أما الأخلاق الثانية هى تطلع أو وثبه ، وقادة الإنسانية العظام الذين حطموا الحدود وقهروا الحواجز قد ساروا صوب هذه الوثبة الحيوية. وهنا تلقى نظرة سريعة على الوثبة الحيوية عند "برجسون" وماذا تعنى ؟ إن الوثبة الحيوية هى الديمومة أو الصيرورة. والاختلاف بين الديمومة والعالم هو اختلاف فى درجة الشدة أو التوتر أو الديمومة "فنحن هنا بإزاء ديمومة قد اشتدت وتوترت وتركزت

حتى استحالت إلى الأبدية ولكنها ليست أبدية ميتة مجردة بل هي أبدية حية واقعية ، ونحن نوجد ونحيا ونتحرك في صميمها<sup>(١١)</sup> .

والوثبة الحيوية التي هي الصيرورة أو الديمومة من طبيعة روحية "إن الصيرورة الكونية إنما تسير نحو الكمال"<sup>(١٢)</sup> .

وإدراكنا للديمومة لا يتم بالعقل بل بواسطة الحدس "بالحدس نعرف الديمومة معرفة مباشرة ومن باطننا .. وبينما العقل يملك ويفكك من أجل الإعداد للعمل ، فإن الحدس رؤية بسيطة لا تفكك ولا تتركب ، بل ترى الديمومة في حقيقتها"<sup>(١٣)</sup> .

وعلى ذلك يجب القول بأن الحدس "يعد أحد أشكال الذكاء ، حيث إنه دراسة الواقع بواسطة الروح"<sup>(١٤)</sup>.

وإذا كنا قد ألقينا نظرة سريعة على الوثبة الحيوية ، فكان ذلك في نطاق أن قادة الإنسانية العظام ساروا في اتجاه الوثبة الحيوية. وهؤلاء القادة العظام يمثلون نوعاً متميزاً من الأخلاق ألا وهي الأخلاق المفتوحة وهي تختلف عن الأخلاق المغلقة ، وهذا الاختلاف ليس اختلافاً في الدرجة ولكنه اختلاف في الطبيعة .

#### ب - الأخلاق المغلقة والأخلاق المفتوحة :

تختلف الأخلاق الأولى عن الثانية وهو اختلاف ما بين السكون والحركة ، فالأخلاق الأولى ثابتة لا تتغير ، وإن حدث لها تغير فسرعان ما تنسى ذلك ، وهي تدعى في كل لحظة أن وضعها الراهن هو الوضع النهائي. أما الأخلاق الثانية فهي متحركة ومنطلقة إلى الأمام ، فالتحرك

يمثل نسيج وجودها "وتتوقف الأخلاق المفتوحة على مدى انصهار المبادئ النظرية الأخلاقية في نموذج بشري واحد هو البطل أو القديس ، وهو رمز للوثبة الحيوية ، فهو الذى يسوق وراءه المجتمعات المتحضرة نحو آفاق واسعة تتجاوز الأخلاق المغلقة بأوامرها والتزاماتها وحدودها الاجتماعية المغلقة" (٤٥) .

ونحن نفشل فى استخراج الثانية من الأولى ، لأننا لا نستطيع استخراج الحركة من أوضاع متعددة للحركة ، بينما الحركة تتضمن السكون ، لأن الأوضاع التى يمر بها المتحرك يمكن أن تدرك على أنها وقفات ممكنة "ولذا فإنه من السهولة التعبير عن الأخلاق الأولى خلافاً للثانية. لأن العقل واللغة فى الواقع يعبران عن الأشياء فينقل عليهما أن يحققا التقدم" (٤٦) .

وإذا نظرنا إلى أخلاق الإنجيل وجدنا أن جوهرها أخلاق النفس المفتوحة ، ولذا نجد أنها متناقضة وشريرة فى كثير مما تأمر وتوحى بهما. فإذا كان الغنى شراً ، أفلا نسئ إلى الفقير إذا أعطينا ما نملك ؟ وإذا أعطينا الخد الأيسر لمن يصفعنا على الخد الأيمن ، أليس فى هذا إجهاضاً للعدالة التى بدونها لا توجد المحبة ؟ ولكن سرعان ما نزول دهشتنا ، إذا لم نقف أمام ظواهر هذه المواعظ ونظرنا إلى ما تصبو إليه من حاله روحية. لأن تخلى الغنى عن ماله للفقير لا يتم من أجل الفقير بل من أجل الغنى نفسه. وفى الواقع نجد أن الصلة بين الأخلاق القديمة والأخلاق المسيحية كالصلة بين الرياضة القديمة والرياضة المعاصرة. فهندسة الأقدمين كانت تنقصها الوثبة ، التى تؤدى بها إلى الانتقال من السكونى إلى الحركى. ولكن لدينا شعور بأنهم حاولوا قدر استطاعتهم تحقيق التحول من السكونى

إلى الحركى. نفس الشعور نواجهه حين نقارن بين الأخلاق الرواقية والأخلاق المسيحية. فقد أعلن الرواقيون بأنهم مواطنو العالم ، وأن الإنسانية كلها إخوة ، لصدورهم عن إله واحد. وهذا الحديث يكاد أن يكون حديث المسيحية نفسه ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن له نفس الصدى ، لأن اللهجة التى تتحدث بها المسيحية تختلف عن اللهجة التى تتحدث بها الرواقية. على الرغم من أن الرواقيين كانوا قدوة ، ومع ذلك لم يوفقوا فى أن يسوقوا الإنسانية معهم لأنه "بعداً بين هذا وبين الحماسة التى تسرى من نفس إلى نفس سريان الحريق"<sup>(٤٧)</sup> .

وإذا أردنا أن نجد مثالا لذلك فى العصر القديم ، سنجد سقراط الذى ألهم فلاسفة اليونان كل مذاهبها الفلسفية ، دون أن يؤسس مذهباً أو حتى يكتب سطوراً واحداً. يعلم سقراط الناشئة لأن وحيأ فى دلفى يدفعه إلى هذا الفعل ، إنه صاحب رسالة وعليه توصيلها. إنه فقير ويجب أن يظل كذلك وعليه أن يختلط بالشعب ويتكلم لغته. يهدف سقراط من وراء ذلك أن تنتقل أفكاره إلى النفوس الإنسانية الحية ، فيتم نقلها إلى نفوس غيرهم. ولا يتأثر بالجوع والعطش ، ولا يعنى ذلك أنه زاهد بل لأنه متحسر من جسده ومتطلباته. وله شيطان يرافقه حيثما وجد ، وكلما كانت هناك حاجة إلى الكلام هتف له شيطانه بأن يتكلم. إن عدم دفاعه عن نفسه أمام هيئة المحكمة التى قامت بمحاكمته ، لأنه لم يثق من شيطانه هاتفاً لأن يتكلم. إن رسالته تصطبغ بالصبغة الدينية الصوفية وتعليمه وإن كان عقلياً فإنه يتجاوز العقل المحض. نجد ذلك فى الصفحات الملهمة الغنائية فى كثير من محاورات أفلاطون. إن جميع فلاسفة الأخلاق اليونانيين من رواقيين وأبيقوريين وكلبيين تسأثروا فيما قالوه بسقراط واقتبسوا منه الموقف الروحى الذى قد

لا ينسجم مع طبيعة الروح اليونانية. إذا شاهدت فيلسوفاً أراد أن يكون قدوة للناس ، فاعلم أن سقراط مائلاً أمامه يؤثر فيه. لو أن مفهوم الروح الذى ينسبه "أفلاطون" فى "الفيديون" إلى "سقراط" ليس له ، كيف يتسنى لنا أن نفهم حياته وموته ؟ إن الأساطير التى تتناول الروح فى محاورات أفلاطون ليست إلا تعبيراً أفلاطونياً عن انفعال كامن فى تعليم سقراط الأخلاقى. ثم بدت التعاليم السقراطية فى الأفلاطونية المحدثة السكندرانية ، على يد "أفلوطين" الذى ذهب إلى القول بأنه متمم لسقراط. وظل الناس يتمسكون لفترات طويلة ، أننسب إلى المسيحية أم إلى الأفلاطونية المحدثة ؟ وبما أننا فى هذا الإطار نميز بين النفس المغلقة والنفس المنفتحة "فمن ذا الذى يريد أن يصنف سقراط ضمن أصحاب النفوس المغلقة ؟ لئن كانت السخرية تملأ تعاليم سقراط ، وكانت الانفعالات الغنائية نادرة فيما كتبه ، فإن هذا القليل من الانفعالات قد فتح المجال لروح جديدة ، وترك أثراً عظيماً على مستقبل الإنسانية" (١٨).

بين النفس المغلقة والنفس المنفتحة توجد مرحلة وسيطة بينهما كالتى توجد لدى الإنسان بين سكون الجالس وحركته ألا وهى حالة النهوض. إن السكونى المحض فى الأخلاق تحت عقلى وإن الحركى المحض فوق عقلى. الأول من صنع الطبيعة ، حيث يتكون من العادات الإنسانية التى تقابل فى الإنسان بعض الغرائز الحيوانية ، إذن فهو دون العقل ، أما الثانى فهو من إبداع العبقرية الإنسانية ، انطلاقاً من طبيعته المتطلعة المرتبطة بالحس والانفعال ، إذن فهو أكثر من عقل. بين هذين الطرفين يوجه العقل. النفس الإنسانية إذا وثبت ولم تصل إلى الثانى ، عندئذ توجد فى الوسط ، والأخلاق هنا هى أخلاق النفس المغلقة ، والحالة هنا هى بمثابة النهوض ويعنى ذلك

إنها في مستوى العقل نفسه "لا يوجد سوى طريق واحد للانتقال من العمل المحاط في دائرة إلى العمل في الفضاء الفسيح ، ومن التكرار إلى الإبداع أو ما يقع تحت العقل إلى ما يتجاوز العقل. ومن يوجد بين هذين النمطين فيعد بالقطع في منطقة التأمل لأنه لم يقف عند الأول ولم يصل إلى الثاني فيدبى أنه في المنطقة الوسطى التي تعنى الانعزال"<sup>(٤٩)</sup>.

إن العقل هو السمة التي تميز الإنسان تلك حقيقة نتفق عليها ولا يوجد اختلاف في هذا الشأن. ونتفق أيضاً على أن العقل له قيمة سامية ، وذلك بالمعنى الذي نذهب فيه إلى القول بأن هذا العمل الفني البديع ذو قيمة. ولكننا يجب أن نعرف - كما يذهب برجسون - لماذا يستطيع العقل أن يلمر أمراً مطلقاً ؟ وكيف جعلنا نستجيب له ؟ إن كل ما يستطيعه العقل هو أن يقدم حججاً ، وهذه الحجج نستطيع أن نرد عليها بحجج أخرى ، فعلينا ألا نقف عند القول بأن العقل يفرض علينا احترامه ، ويجعلنا ندع عن لقيمته السامية ، بل علينا أن نضيف أن وراء العقل يوجد أناس أضفوا على العقل وطبعوه - على حد تعبير برجسون - بطابع الأوهية وعلى ذلك فإنه "برغم تعرضنا لضغط المجتمع الواقعي ، فإنهم يجذبوننا إلى المجتمع المثالي"<sup>(٥٠)</sup>.

وإذا كان هذا شأن العقل والدور المنوط به أن يؤديه ، هل يعني ذلك أن العقل ليس له تأثير وذلك فيما يتعلق بالمربين حين يريدون ترسيخ الأخلاق في نفوس تلاميذهم ؟

### جـ - التربية الأخلاقية :

إننا لا ننكر - كما يذهب برجسون - ضرورة وفائدة التعليم الأخلاقي الذي يتجه إلى العقل الصرف ، انطلاقاً من أن الأخلاق لا تكتسب كمالها



بدون تفكير وتحليل وحوار مع الآخرين ومع الذات. ولكن إن كان هذا التعليم الأخلاقي الذي يتجه إلى العقل يجعل الحس الأخلاقي أكثر رهاقة ، وإن كان هذا التعليم يجعلنا أكثر قدرة على تحقيق مقصدنا ، وهنا ينبغي أن يكون هنالك مقصد ، والمقصد يتضمن إتجاه الإرادة. عندئذ كيف يتسنى لنا التأثير في الإرادة ؟ توجد طريقتان أمام المربي ، الطريقة الأولى هي طريقة الترويض بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ، والثانية طريقة التصوف بأبسط معانيها. من خلال الطريقة الأولى يتم تلقين أخلاقي يتضمن عادات غير شخصية ، ومن خلال الطريقة الثانية تكتسب الأخلاق بواسطة محاكاة لشخص ، بل باتصال روحى بشخص أو اتحاد يكاد أن يكون تاماً. الطريقة الأولى وهي طريقة الترويض ، هي التي أرائتها الطبيعة بأن نقوم ببنى عادات الجماعة تتم هذه الطريقة آلياً وتلقائياً ، طالما شعر الفرد باندماجه في الجماعة. وأما الطريقة الثانية فهي متممة للطريقة الأولى عند الحاجة ، وقد تحل محلها وفي هذه الحالة لا يتردد "برجسون" في تسميتها بأنها دينية بل صوفية ، ولكننا يجب أن نحدد ما ترمى إليه هاتان الكلمتان. يذهب الناس إلى القول بأن الدين دعامة أساسية للأخلاق ، ارتباطاً بطبيعته التي تهدد بالعقاب وتطمع في الثواب. وما يذهبون إليه حقاً ، ولكن علينا أن نلفت النظر بأن الدين لا يفعل شيئاً في هذه الحياة التي نحيا في كنفها ، غير أنه يعد بأن العدالة الإلهية ستكون مكاملة للعدالة الإنسانية. والدين بهذا يضيف إلى الجزاء الاجتماعي الذي لا يتحقق بالصورة المثلى جزاء آخر يفوق الجزاء الاجتماعي بما لا يمكن مقارنته يتحقق هذا الجزاء في ملكوت الله. بهذه النظرة إلى الدين مازلنا لم نتجاوز المجتمع الإنساني ، على اعتبار أن ما يذهب به الدين لا علاقة له بما يحدث في عالمنا. ومازلنا ننظر إلى

للتربية الأخلاقية على أنها ترويض ، وبناء عليه نحن فى نطاق الطريقة الأولى ولم ننتقل إلى الطريقة الثانية. بالإضافة إلى أننا عندما نتعامل مع الدين يستحوذ على تكفيرنا العقائد الدينية وما تتضمنه من نظرة ميتافيزيائية يترتب على هذا أننا إذا سلمنا بالدين منطلقاً أساسياً للأخلاق يترتب عليه عدة مفاهيم تتناول الكون ، وتتصل بالله ، إذا ارتبطنا بها ترتب عليها فعل الخير. ولكن مثل هذه المفاهيم تؤثر فى سلوكنا تأثير الأفكار ، وهذا يعنى أننا مازلنا فى مستوى العقل - وقد أشرنا سابقاً - إلى أن الإلزام وما يترتب عليه لا يمكن أن نصل إليه من خلال الفكرة المحضة ، وأنها لا تؤثر فى سلوكنا إلا بالقدر الذى نريده. وهنا قد نجد من يعترض على ذلك باعتبار أن هذه الميتافيزياء متميزة عما سواها ، لأنها تمتلك ما تفرضه علينا فرضاً برغم أحقية القائل فيما يقول ، فى هذه الحالة لا نتعامل مع المضمون فقط ولا نفكر فى التصور الفكرى المحض ، بل نقوم بإدخال شئ مختلف يعضد هذا التصور ويمنحه قوة لا ندرى عنها شيئاً هى جوهر الدين. وبذلك لا يكون المصدر الدينى لهذه الأخلاق هى النظرة الميتافيزيائية التى تضاف إلى هذا الجوهر ، ولكنها عندئذ تكون هى الجوهر نفسه<sup>(٥١)</sup>.

وهذا يعنى أننا أمام التجربة الصوفية - إذن نحن بإزاء الطريقة الثانية - وهى تجربة مباشرة ولا تخضع للتأويل. إن المتصوف الحقيقى تحتاجه موجهة تستحوذ على نفسه. والمتصوف لديه ثقة بنفسه ، ويحس أن فى باطنه خيراً عظيماً ، علاوة على أن المتصوف يقدر العمل على الرغم من الرؤية الخاطئة التى تتعامل مع التصوف على أنه لا يخرج عن كونه نشود. ويسيطر على المتصوف رغبة فى نشر ما ينساب بداخله إلى كل ما يوجد حوله ، تلك الرغبة يحسونها وثبة حب ، وهو حب يصطبغ لدى كل

منهم بشخصية صاحبه ، إنه حب يصبح لديهم عاطفة متفردة كل التفرد ،  
قادرة على أن تمنح الإنسان نعمة جديدة ، إنه حب يجعل كل منهم محبوباً  
لذاته ، إنه حب أيضاً ينتقل بواسطة شخص ارتبط بهم ، أو عن طريق  
ذكراهم التي لا تزال حيه وهنا يطرح سؤال نفسه ، إذا كان حديث  
متصوف ، أو ممن يسيرون على دربه ، يترك في نفس أحدها هذا الصدى ألا  
يعنى هذا أن بداخلنا شخصية صوفية في حاجة إلى من يوقظها ؟ في  
الحالة الأولى يرتبط الإنسان بما ليس بشخصي ، ويستهدف الاندماج به. أما  
هنا فهو يلبي نداء شخصيته قد تكون تلك الشخصية من أوحى له بالحياة  
الأخلاقية ، أو شخصية أحد مما يحاكيه ، وفي ظروف أخرى قد تكون  
شخصيته نفسه<sup>(٥٢)</sup>.

تعتبر الطريقة الأولى والثانية عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ، ولكنها في  
الطريقة الأولى تكون النظرة سكونية فهي تعد ضغطاً ، بينما في الثانية  
حركية فهي تطلعا. ومادام هنالك مجتمع فإنه بالضرورة يمارس ضغطا على  
أعضائه ، ويعد هذا الضغط إلزاماً. لو كان في مقدور المجتمع أن يكتفى  
بذاته ، عندئذ كان يعد السلطة العليا. ولكنه لا يخرج عن كونه شيء مما  
أوجدته الحياة ، وعلى هذا في استطاعتنا أن نتصور أن الحياة التي أوجدت  
الإنسانية من خلال تطورها ، قد أوجدت أفراداً متميزين قادرين على  
مساعدة المجتمع والقفز به إلى الأمام.

## المحاضرة

يفرق "برجسون" في فلسفته الأخلاقية بين نمطين من الأخلاق ، النمط الأول الأخلاق المغلقة ، والنمط الثاني الأخلاق المفتوحة .

### النمط الأول : الأخلاق المغلقة :

إن أخلاق المجتمعات المغلقة ترتبط بعادات المجتمع ، وكل عادة من هذه العادات تضغط على إرادتنا. وإن هذه العادات يعضد بعضها بعضاً ، وإنها ليست منفصلة ، بل إن هناك اتصالاً بين هذه العادات. ونتيجة هذا الضغط يتبلور بداخلنا جملة من العادات ترتبط بها ، وهي شبيهة بالسلسلة التي أوجدتها الطبيعة. وإن هذه الأخلاق المغلقة هي أخلاق ثابتة لا تتغير ، وهي تدعى في كل لحظة أن وضعها الراهن هو الوضع النهائي. وأن هذه الأخلاق تتضمن عادات غير شخصية ، وهي الطريقة التي أرادتها لنا الطبيعة بأن نقوم بتبني عادات الجماعة ، تتم هذه الطريقة تلقائياً وآلياً ، طالما شعر الفرد باندماجه في الجماعة .

### النمط الثاني : الأخلاق المفتوحة :

أما أخلاق المجتمعات المفتوحة ، تعبر عن حالة عاطفية ، وهنا لا يقع الفرد تحت ضغط بل يتغير الموقف إلى جذب. وهذه أخلاق تطلع بمثلها قادة الإنسانية العظام الذين حطموا الحدود وقسروا الحواجز. وهي أخلاق متحركة ومنطلقة إلى الأمام ، فالتحرك يمثل نسيج وجودها. وهي أخلاق إنسانية تجسدت في شخصيات متفردة ، ولها وجود في كل الأزمنة ، ولا يقتصر وجودها على زمن دون غيره. وقبل أن تعرف الإنسانية

القديسين في المعتقد المسيحي ، فقد عرفت حكماء اليونان وأنبياء بنى إسرائيل ، وشخصيات بوذية وغيرهم كثيرين. وبمثل هذه الشخصيات كانوا يقتدون ويتخذونهم نبراساً وهادياً على الطريق. ولا يعرف طبيعة مثل هذه الشخصيات إلا من أتيج له الوقوف أمام شخصية مسن هذه الشخصيات الأخلاقية الكبيرة .

وللتجربة الصوفية — عند برجسون — مكانة متميزة ومتفردة، ولا يعنى هذا أن "برجسون" قد تنكر لأفكاره وتحول إلى لاهوتيا ، ولكنه ظل ملتصقا بالطبيعة ولم يسلم بسند أخلاقي مفارق. ولذا نستطيع أن نقول الكلمة الأخيرة في الأخلاق عند "برجسون" ألا وهى "إن كل أخلاق سواء كانت مضغطا أو تطلعا فهى ذات طبيعة بيولوجية"<sup>(٥٣)</sup>.

## أولاً : هوامش البحث

1. Bergson.H. Les deux sources de la moral et de la religion, I. Vol., Paris, F.Alcon, 20e edition, 1937, P, 25
2. Ibid, P.28
- ٣- د/ محمد على أبو ريان - للفلسفة الحديثة - دار الكتب الجامعية -  
١٩٦٩ ص ٣٤٢
4. Bergson. H. Les deux sources de la moral et de la religion, P. 3
5. Ibid, PP. 3,4
- ٦- أميل بوترو - العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة - ترجمة د/ أحمد  
فؤاد الاهوانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣ - ص ٢٩٦
7. Bergson. H. Les deux soueces de la moral et de la religion, P. 6
8. Ibid, P.7
9. Ibid, P.7
- ١٠- د/ زكريا إبراهيم - برجمون - الطبعة الثانية - دار المعارف -  
القاهرة - ١٩٥٦ ص ١٨٩ .
11. Bergson. H. Les deux sources de la moral et de la religion, P.9
12. Ibid, PP.11,12

13. Ibid, P.14

14. Kant.I. The fundamental principles of the metaphysic of Ethics – translated with an introduction by otto Manthey Zorn – Appleton century, Crofts, In, 1938, P.52

١٥- د/كی نجیب محمود - موقف من الميتافيزيقا - دار الشروق - الطبعة الثانية - ١٩٨٣ ص ٥٨.

16. Bergson. H. Les deux sources de la moral et de la religion, P.17,18

17. Ibid, P.18

18. Kant.I. The fundamental principles of the metaphysic of Ethics, P,13

19. Bergson.H. Les deux sources de la moral et de la religion, P.20

20. Ibid, P.27

21. Bergron. H. "L' Evolution creatrice," I.Vol., Paris, F.Alcan, 15 ed., 1914, P, 148

22. Ibid, PP. 153 , 154

23. Felicien challaye, Bergron, Paris, 1947, P, 41

٢٤- د/ مراد وهبه - المذهب في فلسفه برجسون - مكتبة الانجلو المصرية - دار وهدان للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - ١٩٧٨ ص ٩٤.

25. Bergson.H. Ies deux sources de la moral et de la religion, P,22

26. Ibid, P.24.

27. Ibid, P.27.

٢٨- د/ مراد وهبه - المذهب فى فلسفه برجسون ص ١٤٢ .

29. Bergson.H. Ies deux sources de la moral et de la religion, PP, 29,30

30. Jame.W. the varieties of Religion Experience, Iongmans, Green and Co, 1904, P, 284

31. Bergson.H. Ies deux sources de la moral et de la religion, PP, 31,32

32. Ibid, P.34

33. Ibid, P.44

34. Ibid, PP,46,47

35. W.T. Jones, Ahistory of western philosophy- Kant and the Nineteent Century- second Edition, Revised -IV- Harcourt Brace Javanovich, INC. 1973, P, 320

36. Jame .W. the varieties of Religion Experience P. 423

37. Ibid, P, 358

٣- د/ أحمد فؤاد الالهوانى - فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط - دار

أحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٥٤ ص ١٥١

39. Bergson. H. la Pensee et la Mouvant Geneve, 1990, P,15٠,



40. Bergson.H. les deux sources de la moral et de la religion,  
P. 51

41. Bergson. H. la Pensee et le Mouvant, P, 170

42. Felician challaye : Bergson, P, 220

٤٣- إ. م. بوشنمكي - الفلسفة المعاصرة في أوروبا - ترجمة د. عزت  
قرني - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت "العدد ١٦٥"  
- ١٩٩٢ ص ١٧٩

44. Leon Husson: L' intellectualisme de Bergson, Genese et  
development de la notion Bergson. ienne d'intuition, Paris,  
1997, P.124

٤٥- د/ محمد علي أبو ريان - الفلسفة الحديثة - ص ٣٣٩

46. Bergson.H. les deux sources de la moral et de la religion  
P, 56

47. Ibid, P. 58

48. . Ibid, P.67

49. . Ibid, P.63

50. . Ibid, P.67

51. . Ibid, PP, 100 - 101

52. . Ibid, PP, 101 - 102

53. Bergson.H. les deux sources de la moral et de la religion  
P.103

## ثانيا : المراجع والمصادر

### ١- المراجع والمصادر العربية :

- ١-د/ أحمد فؤاد الأهواني - فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط - دار أحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى - القاهرة - ١٩٥٤ .
- ٢-أميل بوترو - العلم والدين في الفلسفة المعاصرة - ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهواني - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣ .
- ٣-أ.م. بوشنسكى - الفلسفة المعاصرة في أوروبا - ترجمة د/ عزت قرنى - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت العدد "١٦٥" - ١٩٩٢ .
- ٤-د/ زكى نجيب محمود - موقف من الميتافيزيقيا - دار الشروق - الطبعة الثانية - ١٩٨٣ .
- ٥-د/ زكريا إبراهيم - برجسون - الطبعة الثانية - دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٦ .
- ٦-د/ مراد وهبة - المذهب في فلسفة برجسون - مكتبة الأنجلو المصرية - دار وهدان للطباعة والنشر - الطبعة الثانية - ١٩٧٨ .
- ٧-د/ محمد على أبو ريان - الفلسفة الحديثة - دار الكتب الجامعية - ١٩٦٩ .

ب- المراجع والمصادر غير العربية :

- 1- Bergson, H Les deux sources de la moral et de la religion, I. Vol., Paris, F. Alcon, 20e edition, 1937.
- 2- Bergson, H. "L'Evolution creatrice, " I. Vol., Paris, F. Alcan, 15ed, 1914.
- 3- Bergson, H. La pensee et la Mouvant Geneve, 1990.
- 4- Felicien challaye, Bergson, Paris, 1947.
- 5- James, W, the varieties of Religion Experience, Longmans, Green and co, 1904.
- 6- Kant, I, the fundamental principles of Metaphysic of Ethics, translated with an introduction by otto Manthey zorn – Appleton century, crofts, In, 1938.
- 7- Leon Husson: L'intellectualisme de Bergson, Genese et development de la notion Bergson, ienne d'intuition, Paris, 1997.
- 8- W.T. Jones, A history of western philosophy – Kant and the Nineteent century, second edition Revised – IV- Harcourt Brace Javanovich Inc , 1973.

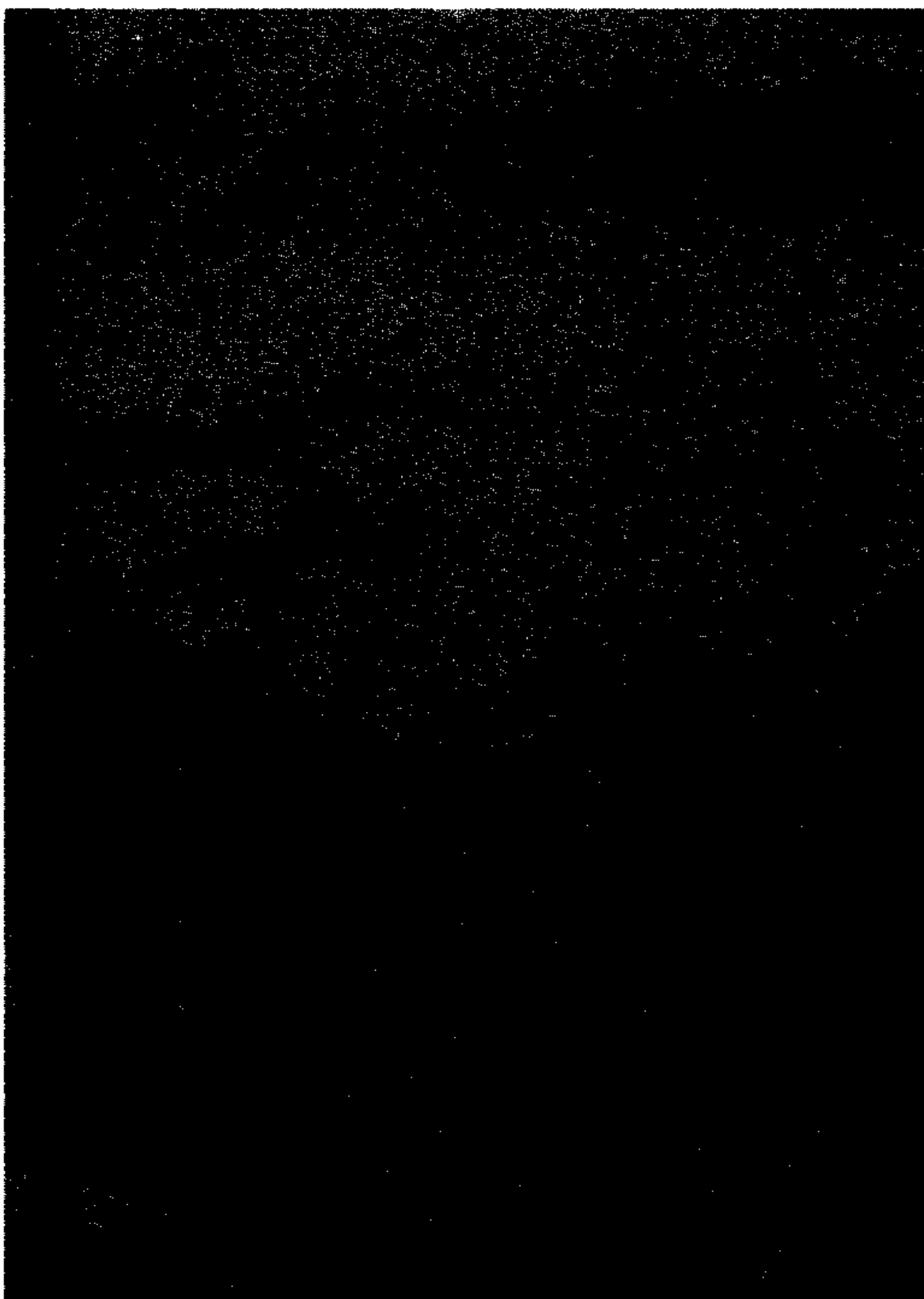




رقم الإيداع ٩٨/١٧٦٢٨

الترقيم الدولي 977-19-7840-3







To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)